ASJP Algerian Scientific Journal Platform
دراسات معاصرة Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي-تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-988 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297

المجلد:04/ العـــــــدد:03 ديسمبر (2020)، ص 131- 145

تفكيك المركزيات السلطوية ونقد خطاب الثورات العربية في رواية ليلة الريس الأخيرة لياسمينة خضرا

Dismantling authoritarian centralists and criticizing the speech of the Arab revolutions in: The Dictator's Last Night's novel by Yasmina Khadra

أسماء العايب

asmalaib18@gmail.com

جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2020/08/31 تاريخ القبول: 2020/10/08 تاريخ النشر: 2020/12/02

ملخص:

في هذا المقال نبحث تجليات السياسي ومضمرات النقد الروائي للمركزيات السلطوية في رواية «ليلة الريس الأخيرة» لياسمينة خضرا هذه الرواية التي توثق للحظات ذهنية وانفعالية من حياة الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي، ينسج لنا كاتبها سردا غنيا يتنامى عبر تراكمات نفسية من ذاكرة جماعية مثقلة، وعبر تواريخ السياسة الليبية وانتفاضة الليبين وسقوط حكم القذافي، رواية تتبنى تقنيات المونولوج الداخلي والخارجي، لتكشف سلوكيات ديكتاتور مرتبكة، في لحظات قلقها وإشراقها في خضم واقع عربي ممزق، فهو نص يقع منذ العنوان على حافة التجنيس ويفتح للقارئ أفق التساؤل وارتباك التصنيف ما بين الرواية والسيرة الذاتية والغيرية والتوثيق التاريخي لسقوط الديكتاتوريات العربية في خضم ماسميّ بثورات الربيع العربي .

كلمات مفتاحية: الربيع العربي، الدكتاتورية، جنون العظمة، المركز، نقد السلطة.

Abstract:

The Dictator's Last Night's novel documents mental and emotional moments from Muammar Gaddafi's life, its writer weaves rich narrative moments that grow through psychological accumulations of heavy collective memory, and through the dates of Libyan politics, the Libyan uprising and the fall of Gaddafi's rule, Yasmina Khadra adopts internal and external monologue techniques, to reveal the dictator's behavior Confused, in her moments of anxiety and radiance in the midst of a torn Arab reality, it is a text that is located from the title on the edge of naturalization and opens the reader to the horizon of questioning and confusion of classification between the novel, biography, altruism and historical documentation of the fall of the Arab dictatorships in the midst of the Arab Spring revolution.
Keywords: Arab Spring, Dictatorship, Paranoia, Center - Criticism of Power.

مقدمة :

يشغل خطاب ما دعي بالربيع العربي اليوم حيزا هاما من مساحة الإبداع الأدبي العربي عامة والجزائري خاصة، إذ تنتظم مواضيع هذا الحدث السياسي التاريخي داخل النسيج الإبداعي الروائي الجزائري مشكّلة وثيقة أدبية تساءل أشكال الاستبداد السياسي في سياق تتهاوى فيه السلطات، وتفقد المركزيات بريقها وسطوتها ليكون التشتت والانهزام مادة لرواية «**ليلة الريس الأخيرة**» التي تصنف ضمن الروايات الصادرة عن الدكتاتور والتي برزت بشكل كبير عند روائيي أمريكا اللاتينية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي وتحضر اليوم على الساحة الأدبية الجزائرية والعالمية بقلم **ياسمينة خضرا؛** ليرسم هندسة لشخصية ونفسية الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي التي طالما كانت عسيرة على الفهم مثيرة للجدل، فهي رواية تتجاوز المألوف وتخرق السائد لتسرد سيرة وطن بأكمله وتسائل عمق النفس البشرية حين تختلط بأدران السياسة وتهوي بها إلى غياهب الموت، نسائلها في هذا البحث عن أوجه السياسة العربية وعن الوجه الآخر لانتفاضات العرب المعاصرة، وعن نهاية الاستبداد و مناخات التغيير السياسي فنطرح الأسئلة التالية:

-ماهي أساليب **ياسمينة خضرا** في صناعة الاختلاف ؟

-كيف ساهمت كتابة السيرة الغيرية في رسم صورة السلطة السياسية العربية في زمن (الربيع العربي)؟

- إذا كنا نقرأ كلمات **ياسمينة خضرا** ونسمع صوت القذافي؟ فما الأسلوب الذي انتهجه الكاتب في هندسة التيمات المحورية في الرواية؟

1. ياسمينة خضرا الرواية والاختلاف:

إذا كانت الرواية إبداعا، فهي عند خضرا اختلاف، هذا الكاتب الذي يغوص دوما في لا مرئي التاريخ ليسجل بعمق لحظات كثيرا ما تحمل السياسة في جنباتها، كاتب ينظر من زاوية مختلفة ليمتهن «تدميرا للغة السائد والمقبول ويقتحم ما تحت الوعي، باستخدام صيغ مختلفة لتعرية أغوار الذات وصولا إلى تلك المنطقة الغامضة» [1]، فمن الكتّاب من يتجلى لقارئيه قبل فنّه لكنّ **خضرا** مختلف فهو من ظهر لقرائه خلف اسم مستعار سرعان ما أُسقط بفعل الهزّات العنيفة التي عادة ما تحدثها رواياته.

فقد «ساهمت رواية **(الكاتب)** في الإعلان عن هويته وعن موهبته ثم نالت الميدالية الذهبية للأكاديمية الفرنسية ورسخت مكانته ككاتب يصفّي حساباته مع الأوهام التي انهارت أمامه ويرتقي إلى العالمية برواية **(سنونوات كابول)**»[1]، فجدل الإبداع الروائي عنده «متعدد الأطراف لا يتم داخل عالمه الخاص، بل يمتد إلى التقاليد التي يتجاوزها والفضاء الذي يستشرفه المخيال الجماعي»[2] الذي اتسع عنده إلى حدّ استطاع فيه **خضرا** أن يتكلم على لسان الزعيم اللّيبي **معمر القذافي** في رواية **ليلة الريس الأخيرة** الصادرة عن دار «جوليار» الفرنسية سنة2015 تحت عنوان« La dernière nuit du» ، هذه الرواية التي تصنف ضمن الرواية السياسية « ... التي تلعب فيها الأفكار السياسية الدور الغالب و التحكمي أو هي الرواية التي نتحدث فيها عن غلبة أفكار سياسية أو وسط سياسي، إنها تظهر هذا الافتراض دون صعوبة أو تحريف»[(3)] تعرض قضية سياسية، ضمن تشكيل سردي فني؛ و تروي **ليلة الريس الأخيرة** عددا

من القضايا السياسية العربية الرّاهنة كسقوط و تفكك المركزية السلطوية للحاكم العربي، تطورات المحن السياسية العربية المعاصرة.

يكتب **ياسمينة خضرا** في هذه الرواية مأساة ليبيا منطلقا من نفسية القذافي الطاغية يسجل للحظات سادية وأخرى دموية، منطلقا من قول **مانكور أولسن** عن أولئك الذين يمارسون السلطة بأنهم «أناس يعدّون بالطبع معقدين بدرجة استثنائية، وكما أرى فإنّ البشر نادرا ما يتصرفون من وازع دوافع غير مختلطة فالدوافع الإنسانية لا يحركها وجود مصلحة ذاتية فحسب، بل هناك أيضا عنصر خيّر –بل وعرق خبيث– في الطبيعة الإنسانية و لا تعتمد المحصلات التاريخية بالتأكيد على بواعث ذوي السلطة ومصلحتهم الذاتية فحسب بل أيضا على أخلاقهم وطبيعتهم ونوازعهم»[4] هذا ما انبنت عليه رواية الريس عن ليلته الأخيرة التي يتذكر فيها كل الليالي وكل عقده النفسية .

عن ليلة السقوط وليالي الخيبات وجنون العظمة والوساوس القهرية يحكي **خضرا** على لسان القذافي اثنين وأربعين سنة من التجبر والهيمنة، وعمر آخر من طفولة القذافي وشبابه يلخصها خضرا في 189 صفحة، ليلة السقوط في مدينة سرت حيث يناجي الزعيم أمله الأخير وأحلامه السرمدية في العودة مجددا إلى الحكم، لكن أفق انتظاره سرعان ما تحطم حين قبض عليه الثوار اللّيبيون ومات القذافي كما لم يتوقع أحد.

2 .تعالقات السيرة الغيرية والواقع السياسي العربي المعاصر(الربيع العربي):

جاءت رواية **لية الريس الأخيرة** في سياق المحنة العربية المعاصرة، أو ما سمي مجازا **بثورات الربيع العربي***، نسجها خضرا على طريقة السيرة الغيرية*ليجمع «بين التشكيل الواقعي في مظانه الذاتية الشخصية والتشكيل التّخيلي بمرجعياته الفنية الجمالية فالتشكيل الواقعي له مواضعاته وقوانينه وقواعده الكتابية، مثلما التشكيل التخيلي له مواضعاته وقواعده الكتابية»[5]؛ لأنه يمزج في هذه الرواية بين صوتين يسمعنا كلمات خضرا بصوت القذافي ليحكي سيرة كل الحكام العرب، الذين سقطوا في جنبات الولع بالحكم إلى حين اللحظة التي اندلعت فيها شرارة الغضب العربي، وتطايرت بعد أن صمت الجميع لسنوات وليبيا«واحدة من الدول العربية التي عانت وواجهت

حالة معقدة من خلال زعيم يتحدث بكلمات وشعارات ثورته التي قادها عام 1969، إلاّ أن دولته سارت بطريق معاكسة تماما لما سبق أن قدمه من وعود»[6] لتصل ليبيا بعدها إلى طريق مسدود وتجتمع الأسباب المختلفة التي تشعل نار الانتفاضة الشعبية، ما جعل أسطورة القذافي تنتهي وشبحه يتلاشى.

تميز السرد في رواية **ليلة الريس الأخيرة** بسحر خاص له نكهة السيرة الغيرية التي تطالعنا ملامحها منذ الصفحات الأولى حيث يتبدى الإيهام السردي الذي يجعل القارئ يتماهى مع الحكي رفقة سارد أوحد هو معمر القذافي، فندخل حياة القذافي بضمير المتكلم مع تحديد المكان والزمان الذي سيروي منه بقوله «مدينة سيرت، القطاع رقم 2 ليلة 19.20 تشرين الأول أكتوبر 2011»[7]، وتحضر مثل هذه التحديدات في ماندعوه بالكتابة السيرية حيث يحدد صاحبها الأمكنة والأزمنة بشكل دقيق وغالبا ما يكون حقيقيا كما يضيف السارد تعيينات زمنية توحي بأنه يحكي عن ذكريات شخصية لا يعرفها سواه فما يعلمه الكاتب خضرا لا يتجاوز بحثا عن حياة القذافي وإنجازاته أمّا مثل هذه المخاتلات السردية فهي من متطلبات الكتابة السيرية، كذكريات القذافي من طفولته إلى شبابه ومصير ما بذله من أجل ليبيا كل ذلك سرعان ما سيتوارى مع الأيام؛ نتيجة الحتمية التاريخية التي سارت وفقها أغلب البلدان العربية التي ناشدت التغيير السياسي يقول السارد/القذافي: «هذه البلاد الجميلة التي بنيتها وحدك رغم كل التحديات، ستتفتت كذخر قديم منخور اليوم أحرقوا العلم الأخضر من أجل أن يرفعوا علم الدم والحداد، وغدا سيحل نشيد غنائي تافه محل النشيد الوطني الذي اخترته لنا، حطموا تمثالك ويشوهون صورك وينهبون قصورك»[8] في هذا إشارة ضمنية لنتائج الثورات العربية ككل وعن خيباتها والدمار الناتج عنها -في ليبيا، سوريا مصر، اليمن ...وغيرها- وأنّها أفسدت الأخضر من كل الأوطان العربية ونشرت الحروب والدّماء و لم تأتِ إلا بمعزوفة الشّؤم وأنّ التاريخ القادم لكل هذه الدول ما هو إلا مغالطات مشوهة وسينقلب كل معنى عن جوهره ، و ستسير الأحداث كما تريد لها يد السياسة:«الموجودة دائما، وفي كل مكان وجد فيه وجد تجمع بشري بالمعنى التاريخ- ثقافي »[9] فإذا لم تكن أحداث الربيع العربي قد « فعلت شيئا آخر غير إماطة اللّثام عن أزمة السلطة والنظام السياسي في البلاد العربية المعاصرة فقد فعلت كل شيء ... لأنها

وجدت أسباب الحياة وأسباب المشروعية فأزمة الأنظمة مركبة ومتداخلة الأبعاد يمكن اختصارها في أظهر مظاهرها وهو الاستبداد، هذا الشكل العريق الممتد في البلاد العربية »[10]

3. تفكيك المركزيات السلطوية ونقد خطاب التغيير :

حفلت الرواية بالنقد اللاذع لكلّ السلطات على اختلاف أنواعها وممارساتها والسلطة هي كل «ما يمارس الهيمنة التي تصل إلى حدّ الاستبداد أحيانا ومصدرها في الغالب سياسي ولكنه يصير أحيانا دينيا واجتماعيا واقتصاديا، مثلما يكون مصدر السلطة فرديا، أي يتمكن فرد من فرض سلطته السياسية أو غير السياسية»[11] وتفكيك هذه السلطات هو النظر إليها بمنظار جديد ومخاطبتها بعين النقد وإعادة قراءة ممارساتها وأوجه تعاملها مع من يعتقدون أنها منطلقهم الأول ودستور حياتهم الذي لا مجال لمخالفته وأكثر سلطة مارس عليها خضرا فعل التفكيك وأعاد كتابتها هي السلطة السياسية بدءا من الرئيس، **فياسمينة خضرا** يضرب سلطة الحاكم وقداسته بلسان القذافي نفسه كما أنه يكسر نرجسيته المتعالية.

يقول القذافي/السارد: «لم أكن سوى ضابط شاب متحرر من الأوهام لا تتعدى صرخته حدود شفتيه لكني تجرّأت على القول لا للأمر الواقع، وأصيح كفى لكل التعديات وقلبت مجرى القدر كمن يقلب الأوراق التي لا يريد استخدامها»[12] فالتشتت والضياع اللّذان عاشهما القذافي من طفولته إلى شبابه هما حقيقته وحقيقة جلّ عقده التي عززّت تشبثه المرضي بكرسي الحكم هو وغيره من الحكام العرب، كما دفعه الخوف من السقوط إلى ممارسة كل ما يزيد من قوته ونفوذه فصارت الغايات لديه تبرر الوسائل وتجعله يمضي إلى حيث يشاء غروره وهوسه، إلى حيث لا يخاف ولا يموت ولا يسقط.

فنحسّ بذلك الخوف والذعر يتسرب من أعماق الرواية ويرافق القارئ عبر صفحاتها في لحظات تطول وتمتد، و القذافي ينتظر حتفه ويعزّي نفسه بأنّ كل شيء سينتهي وسيعود حاكم ليبيا وأسطورتها المقدّسة .

كما لم يتوقف السارد / القذافي عند انتقاد عقده كأنموذج لشهوة السلطة، وإنما امتد ضربه لمركزية السياسين العرب جميعا وانتقاد ممارساتهم السياسية قائلا : «يثيرون الاشمئزاز تماما بخطبهم التي يجترونها منافسين بها القوالين الشعبيين، ماذا كانوا يفعلون ...ويزعمون أنهم

يسوسون شعوبهم مقتنعين أنهم بمنآى عن تقلبات الزمن في مؤتمر القمة الأخير وهم متسترون وراء ابتساماتهم الخادعة حذّرتهم ما حدث لصدام حسين سيحدث لكم .. .بن علي قاطع طريق تحول إلى رئيس»وفي هذا المقطع فضح وتعرية لنسق الحكم العربي المجسّد في هيئة رؤساء تحوّلوا إلى ملوك وجبابرة يزيفون كلّ شيء ويخدعون شعوبهم **بخطاباتهم السياسية***[13] الكاذبة الفارغة، التي تستميل الجماهير وتدغدغ المشاعر وتصنع الأوهام.

ويضيف «كنت مبتهجا لرؤية بن علي يتنكر له قطيعه ذاك المساء كنت أنا الذي يحاول كتم ضحكته المجنونة فيما كان هو يتوسل بصوته المترنح شعبه بالعودة إلى منازلهم، كان ذعره مثيرا للمتعة وكنت أتلذّذ به منذ تنصيبه أدركت أنّ ارتقاءه إلى القمة ليس سوى تمهيد للسقوط»[14] فالكلام هنا موجّه إلى الحكام العرب في أزمنة التجبّر التي سرعان ما ساروا منها إلى أزمنة الانكسار والانحدار الذي فرضه عليهم غضب الشعوب العربية، وثورات الشباب المتعلم الذي طالما جعل وعيه يصمت ويخنع خوفا من حروب كثيرا ما تعرف بداياتها ولا يتنبأ أحد بنهاياتها، فالنقد السياسي هنا يمتزج بالسخرية والغضب، راسما صورة الدناءة والفشل التي وصل إليها الحكام العرب.

كما نجد في الرواية نقدا للشعوب العربية وخطاب الثورة والتغيير الذي دعا له أغلب الشباب العربي منذ سنوات انقضت، فيقول السّارد/القذافي: «لطالما أشعرني الثّوار العرب بالسّأم هم نوعا ما كالجبال التي تتمخض فتلد فأرا»[15]فهذا المقطع يحمل نبرة غضب وخيبة انتظار لما باءت به أغلب الحركات الثورية المعاصرة من فشل ذريع، جعل الشبان العرب يفقدون لذة المواصلة، ويقفون بكل ضعفهم يرثون حلمهم الذي ما ظنّوا يوما أنه سيمضي نحو كارثة إنسانية حقيقية، هذا الفقدان الذي كسر أولئك الذين وقفوا بثقة في وجه الظلم والجبروت فالخوف في الأوطان العربية هو القاعدة أما الشجاعة فهي استثناء، هذه الشجاعة التي دفع الشعب اللّيبي ثمنها باهضا ليعيش بعد سقوط القذافي خوفا أكبر من الخوف الأول «فكل سلطة تعيد سيرة السلطة السابقة التي أسقطتها لأنّ تغير السلطات ظاهري لا يمس جوهرا سلبيا أبديا »[16]

وفي الرواية أيضا نقد للعقل السياسي الشعبي العربي، وهذا ما يؤكده هذا المقطع «ثمة نوعان من الشعوب، الشعب الذي يتصرف برويّة والشعب الذي يسير بالهراوة، شعبنا كان

بحاجة إلى السّوط»[17]؛ من هذا الكلام نسمع صوت القذافي وخضرا معا، فهو نقد للعقلية العربية المولعة بالغالب، وبقوة من يتجبر فترضخ لها بلا هوادة و في هذا ضرب واضح لمستويات الفكر الشعبوي السياسي حيث يسري خطاب الغاب بدل خطابات الديموقراطية، فيكون شعار الشّعوب العربية هو البقاء للأقوى .

و لم يأتي خطاب النقد مخصوصا بالنخبة السياسية العربية بل طال مركزيات السياسة الغربية والنظام العالمي يقول السارد/القذافي «منذ أشهر معدودة كان الغرب، ومن دون أي شعور بالعار، يفرش دربي بالمخمل ويستقبلني بكل مظاهر الشرف، ويطرّز كتفي كعقيد بأكاليل الغار سمحوا لي بنصب خيمتي في مروج باريس الخضراء ...واليوم يحاصرونني على أرضي كفارّ من إصلاحية »[18] فالكاتب على لسان القذافي يُحمّل الغرب مسؤولية المحنة السياسية الليبية فيكشف لنا الوجه الحقيقي للنظام العالمي والقوى الغربية، التي رفعت راية القذافي يوم كان خادما مطيعا لمصالحها، وهاهي تقصفه اليوم معلنة عن انتهاء صلاحية جنونه السياسي فقد تخلّت القوى السياسية الكبرى في العالم عن القذافي فكان صمتها أو كلامها المقتصد تواطؤا صريحا مع مبدأ الغاية تبرر الوسيلة على حد قول الزعيم الجريح الذي لم يحمله أحد إلى قاعة الإنعاش و لم يتلق إسعافات أولية بل تعرض إلى طعنة تاريخية بعد أن قدّم وطنه قربانا للآخر الغربي.

4. الإسقاط السياسي و أساليب السرد الروائي:

عبرت الهوية الأيديولوجية للكاتب من النسق البارز إلى عمق الأنساق المضمرة في الرواية رغما عن كونه قد ألبسها لبوس الحيادية، فقد نسج الكاتب خطابا قويا استطاع فيه أن يمزج بحنكة الروائي البارع بين ماهو أدبي فني وماهو سياسي أيديولوجي.

فقد "تسرب خيال بارع في رسم المواقف والأشكال والمشاعر ولا يكاد يتجاوز بدوره منطق الحقيقة الفنية المشاكلة للواقع والمجسدة له، فهي مزيج من التاريخ المتأدب والسيرة الملحمية العارمة لشخصية سلطوية عربية ...حيث تصل السلطة الطاغية إلى ذروة ابتزاز المشاعر القومية ... فهذه البيانات التي تبدو مشاكلة لسيرته المعروفة لعبت دورها في تخليق نموذج يتجاوز التاريخ إلى عالم الفن المفعم بحيوية الصدق والجمال عامة"[19]، فقد استخدم **خضرا** لعبة التقاطعات بمهارة فتداخلت الأمكنة والأزمنة والحالات وسرى الخوف في أوراق الرواية ...كما استخدم

ألاعيب الحكي وعدد الأصوات ومستويات التبئير، وأنواع الخطاب السردي ...واستبطن الشخصيات بمهارة»[20]، فكانت **ليلة الريس الأخيرة** بمثابة «التقرير المفصل الصادق عن التجربة الإنسانية»[21] لأن «كتابة السير التاريخية، والروايات الأدبية ليست مجرد تكديس قطع من المعلومات المغلفة بضباب الأخيلة والأوصاف والانتقال العفوي عبر منظومة من الاستطرادات والخواطر ...بل تجربة حنكة»[22] فقد اعتمد **خضرا** على الصوت الواحد في سرد الأحداث والذكريات المتعلقة بشخصية القذافي فكثيرا ما نعثر على الضمير أنا، داخل لعبة السرد .

كما جاء زمن الرواية متنقلا بين الماضي والحاضر، إذ لم يلتزم خضرا بزمن واحد من أزمنة حياة القذافي وإنما مارس انتقالات واضحة بين أزمنة حياته من الطفولة إلى الشباب، ومن زمن السيادة إلى زمن السقوط التاريخي لكرسي الحكم مبتعدا عن خطيّة الزمن الذي تأتي فيه الأحداث متسلسلة وإنما رتّب الأحداث وفق الزمن اللولبي الدائري، الذي يعتمد على المفارقات التي تصنع منه بطلا بامتياز خاصة إذا ما التحم بالمضمون السياسي و تجلياته عبر مختلف التركيبات والبنيات المشكلة لهذا الصرح السردي و«الميزة الجوهرية للعمل الروائي هي التعايش والتفاعل في الزمن وضمنه بل إن المهم هو رؤية وتفكير العالم من خلال تنوع المضامين وتزامنها والنظر إلى علاقتها من زاوية زمنية واحدة، فما يحدد الرواية هو التجربة والممارسة في الزمن»[23] فالزمن مشارك أساسا في صناعة المعنى، وتشكيل الدلالة وخدمة التأويل، وتبرز فنية الزمن في كون **خضرا** يسرد أحداثا كثيرة في ليلة واحدة فهو تكثيف متميز، بل هو تحدّ في حدّ ذاتها.

كما اتضح اشتغال الكاتب على عنصر الشخصية «التي عجّ بها الكون النصي فإن إدراكها لا يمكن أن يتم بشكل منعزل عن باقي العناصر الأخرى»[24]، فقد استبطن أعماق القذافي وخارجه و رسم لكل تفصيل من شخصيته وملامحه وأمراضه النفسية في لوحة فنية دقيقة، كما استعرض ذكرياته الحزينة وبطولاته وخيباته، وكذا لحظاته الأخيرة؛ فرسم الكاتب شخصية القذافي ببراعة «من خلال وصفها وتسميتها وإطلاق الأحكام عليها وتصويرها من الداخل والخارج ...وصورة الأماكن التي تعيش فيها أو تتردد إليها وطبيعة الأفراد الذين ترتبط بهم فضلا عن وظيفتها وسلوكها و أفعالها و أفكارها »[25] ومما منح لشخصية القذافي مساحة أوسع للتدخل في جنبات السرد غياب التركيز على بقية شخصيات الرواية على غرار الخادم مصطفى .

كما غلب طابع الحوار على أسلوب الرواية لتتقابل من خلاله وجهات النظر السياسية والوجودية «وهذا القرن الحواري بين لغتين وأفقين هو الذي يمكن المؤلف من تحقيق ذاته إذ نشعر به بوضوح في كل لحظة من لحظات العمل الأدبي» [26]فالحوارات داخل الرواية هي رسم وتوضيح لدرجات وأنواع الوعي السياسي، و تعبير عن فئات المجتمع خاصة أولئك الذين يؤمنون بضرورة الثورة، إضافة إلى من يؤمنون بترك الحال على حاله والشعور بالأمان الدائم والخضوع لسلطة الحاكم الأوحد .

في رواية **ليلة الريس الأخيرة** نجد حوارا لأصوات متعددة منها حوارات القذافي مع خادمه مصطفى، الخادمة أميرة، الفريق أبو بكر وزير الدفاع، شبح صدام حسين؛ حملت كل منها خطابا معينا يختلف عن الآخر، هذه الحوارات هي أصوات أيديولوجية منها ما هو أخلاقي وما هو ديني وكلها جاءت خادمة و مؤطرة ضمن خطاب الأيديولوجيات السياسية المتناحرة بصمت في ليبيا ما قبل سقوط جمهورية القذافي، وقد شكلت نسبة كبيرة من بنية الرواية بل كانت طاغية الحضور .

فجاءت تارة على لسان الشخصيات، دون وساطة على شكل"مونولوج" –كلام القذافي وحواراته الداخلية التي وضحت جيدا نفسيته وغطرسته – وتارة أخرى"ديالوجيا"بين شخصيات الرواية فالكاتب «لم ينقي خطاباته من نواياه ومن نبرات الآخرين؛ ولا يقتل فيها أجنة التعدد اللساني الاجتماعي، ولا يستبعد تلك الوجوه اللسانية وطرائق الكلام، وتلك الشخوص الحاكية المضمرة التي تتراءى في شفافية خلف كلمات لغته وأشكالها وإنّما يرتب جميع تلك الشخوص — الحاكية المضمرة التي تتراءى في شفافية خلف كلمات لغته وأشكالها وإنما يرتب جميع تلك الخطابات والأشكال على مسافات مختلفة من النواة الدلالية، النهائية للعمل الأدبي ولمركز نواياه الشخصية»[27]، هذه الحوارات تستقي من السياسة مصطلحاتها لتُكوّن رؤى مختلفة للعالم والسياسة والدين والثورة والنظام والسلطة كما جعلتنا نعيش بعمق ما حدث في ليبيا وفي دواخل القذافي ومسيرته «ذلك أن الرواية المعبأة بالإيحاءات والأحداث والشخصيات هي دائما مسكونة حقيقة بعبقرية الممكن»[28] هذا الممكن الذي كان مستحيلا ذات يوم بالنسبة للعرب جميعا الذين

وقفوا في وجه الظلم وأسقطوا أعتى الأنظمة المتجذرة في السياسة العربية المعاصرة، هذا الممكن الذي جسده **خضرا** بكل براعة في رواية **ليلة الريس الأخيرة**.

خاتمة:

نصل في الأخير إلى القول بأن هذه الرواية هي بحث في السيرة السياسية وبحث في سيرة المرض السياسي حين يتحجّر في دواخل صاحبه، وينسف كل قوة أخرى حتى يصل إلى نسف نفسه، رواية استعمل فيها **خضرا** كل أساليب النقد ومارس تعرية حقيقية لتلك الخطابات التي بدت متناحرة في سياق ما دعي بالربيع العربي، كما حاورت الرواية فكر الشعوب العربية وتطرقت لنقد ونقض سلطة الحكام العرب من زمن النهوض إلى أزمنة السقوط.

فاستعان **ياسمينة خضرا** بسردية السيرة وأساليب التحليل النفسي، فرسم لنا لوحة متكاملة عن القذافي وغيره من الطغاة العرب المعاصرين أمثال الرئيس المصري السابق حسني مبارك والتونسي بن علي الذين انتهت أساطيرهم وتلاشت مع مدّ الشباب العربي الثائر، كما لم يستغني خضرا عن نقد العقلية العربية والفكر السياسي المعاصر وجسد منظوره الناقد لفكرة الثورة التي رآها فكرة لم تتضح معالمها ويلزمها زمن طويل ودراسة ممحصة ووعي عميق حتى تأتي بثمارها ولم يحمّل مسؤولية الخراب السياسي الحاصل لمراكز السلطة السياسية العربية فحسب، بل حمّل مسؤولية ماحدث ويحدث كلاّ من الحاكم والمحكوم العربي فكانت هذه الرواية في حدّ ذاتها ثورة من ناحية التجديد الأسلوبي الجمالي ومن ناحية التشكيل الثقافي حيث مارس خضرا تفكيكا ناعما بأسلوب أدبي مميز لبنيات السياسة العربية وخطاباتها التي ما زالت تمتد نحو الخراب، وتسير نحو المجهول.

الهوامش:

1حفناوي بعلي، تحولات الخطاب الروائي الجزائري آفاق التجديد ومتاهات التجريب، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1،2015 ،ص14.

2صلاح فضل، لذة التجريب الروائي))، مكتبة السباعي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2005 ،ص 3.

3ينظر،حمدي حسين، الرؤية السياسية في الرواية الواقعية، مكتبة الآداب القاهرة ،ط1، 1994، ص 23.

4مانكور أولسن، السلطة والرخاء تجاوز الدكتاتوريات الشيوعية والرأسمالية، ترجمة: وتقديم: ربيع وهبة، المركز القومي للترجمة ط1، 2011، ص50.

***الربيع العربي:** أطلقت تسمية الربيع العربي على الحركات الشعبية العربية والانتفاضات العارمة، التي اجتاحت أغلب البلدان العربية مع نهاية سنة 2010 وبداية عام 2011، والتي قام بها الشباب العربي في تونس، مصر، ليبيا،اليمن، سوريا، الجزائر الخ... هذه الحركات ،ينظر: إدريس جنداري من أجل مقاربة فكرية لإشكاليات الربيع العربي، الإسلام–العروبة –الديموقراطية. صُك أصلا في الغرب على أيدي محللين وصحافيين غربيين، و لم ينبع من أيّ من الأقطار العربية التي شهدت هذه الثورات والحركات الاحتجاجية.

وتعود أصول هذا المصطلح لمصطلح آخر، وهو "ربيع الشعوب" springtime of nations، وهو المصطلح الذي يستخدمه أحيانا المؤرخون للإشارة إلى ثورات عام 1848 في أوروبا، وأصدق توصيف لما يحدث اليوم هو القول بكونها محنة عربية مشتركة، فهي لا تشبه الربيع في شيء وإنما هي شتاء طويل بارد عصف بالدول العربية، وهوى بها إلى مصير مجهول أكثر، وإلى مشاكل جديدة، كما أبان عن الوجه الوحشي لتلك الأنظمة التي حافظت على كيانها مقابل تدميرها لشعب بأكمله، مثلما حدث في سوريا، كما استغلت بعض الأطراف انتفاضات الشعوب لتستولي على الحكم وتعلن حروبا من نوع آخر كما يحدث اليوم في ليبيا. فالثورة قد تنتهي لكن المحنة مستمرة، توجد للحل مشكلة جديدة وتتعقد الأمور في كل مرة، فالقول بوجود ربيع عربي هو نظرة مبالغة في التفاؤل ولهذا اخترنا تبني مصطلح المحنة السياسية.

في السيرة الغيرية *«يتحدث فيها الأديب عن شخص آخر وليس أمامه إلاّ أحداث في أكثر الأحيان منها ما يتعمق إلى الدّاخل أو يقدم الشخصية من الداخل إلى الخرج»

ينظر: فهمي ماهر حسن، ، السيرة تاريخ وفن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط1، 1970، ص247.

5محمد صابر عبيد، التشكيل السير ذاتي، التجربة والكتابة ، دار نينوى ، دمشق، سوريا، دط، 2012، ص5.

6فيجي برشاد، الربيع العربي الشتاء الليبي، ت منذر محمود محمد، السفير عبدالفتاح عموره، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 2014، ص10.

7ياسمينة خضرة، ليلة الريس الأخيرة، ترجمة أنطوان سركيس، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1 2017،2016، ط2، ص07.

8المرجع نفسه، ص81.

9حنة أرندت، ماالسياسة؟ ترجمة وتحقيق، زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1 2014 ، ص34.

10عبد الإله بلقزيز، ما بعد الربيع العربي، أسئلة المستقبل، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 2017، ص125 .

11سعد البازعي (مواجهات السلطة قلق الهيمنة عبر الثقافات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2018،ط1، ص 4.

12ياسمينة خضرا، ليلة الريس الأخيرة، مرجع سابق، ص 10.

*«**خطاب السلطة الحاكمة** في شائع الاستخدام، وهو الخطاب الموجه عن قصد إلى متلق مقصود، بقصد التأثير فيه وإقناعه بمضمون الخطاب ويتضمن هذا المضمون أفكارا سياسية، أو يلوّن موضوع هذا الخطاب سياسيا، والخطاب السياسي يهتم بالأفكار أو المضامين، لهذا نجد المادة اللفظية قليلة في حين يتّسع المعنى الدّلالي لتلك الألفاظ، فالفكرة في الخطاب السياسي هي الأساس».

(13) محمد عكاشة ، لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظريات الاتصال، دار الجامعات للنشر، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص 46،45.

14المرجع نفسه، ص37.

15ياسمينة خضرا، ليلة الريس الأخيرة، مرجع سابق، ص41.

16فيصل دراج، الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن السقوط ،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان ط1، 2008 ، ص133.

17ياسمينة خضرا، ليلة الريس الأخيرة، مرجع سابق، ص151

18المرجع نفسه، ص142.

19ينظر: صلاح فضل: لذة التجريب الروائي، مرجع سابق، ص 212،211.

20شوقي عبد الحميد يحي، دور الرواية العربية في الربيع العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 2014 ص74.

21راناجيت غها، التاريخ عند نهاية التاريخ العالمي، ترجمة: ثائر ديب، هيئة البحرين للثقافة والآثار،البحرين ط1، 2019، ص 131.

22صلاح فضل: لذة التجريب الروائي، مرجع سابق، ص216.

23ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصيات، المركز الثقافي العربي ،ط1، 1990، ص 10.

24سعيد بنكراد، سميولوجية الشخصيات السردية، رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجا، دار مجدلاوي، عمان الأردن، ط2003،1، ص37.

25لطيف زيتوني، (معجم مصطلحات نقد الرواية عربي إنجيزي فرنسي،مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2002، ص55.

26ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية ، الكلمة في الرواية، تر يوسف حلاق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، (د ط، دت)ص83.

(27)ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،1987، ط1 ص67.

28آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر، 2006 ص34

قائمة المراجع:

1) إدريس جنداري: من أجل مقاربة فكرية لإشكاليات الربيع العربي العروبة –الإسلام –الديموقراطية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2015

2) آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر، 2006.

3) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصيات، المركز الثقافي العربي ،ط1، 1990.

4) حفناوي بعلي، تحولات الخطاب الروائي الجزائري آفاق التجديد ومتاهات التجريب، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015.

5) حمدي حسين، الرؤية السياسية في الرواية الواقعية، مكتبة الآداب، القاهرة ،ط1. 1994.

6) حنة أرندت، ماالسياسة؟ ترجمة وتحقيق، زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2014.

7) راناجيت غها، التاريخ عند نهاية التاريخ العالمي، ترجمة: ثائر ديب، هيئة البحرين للثقافة والآثار،البحرين ط1، 2019.

8) سعد البازعي ، مواجهات السلطة قلق الهيمنة عبر الثقافات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2018.

9) سعيد بنكراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجا، دار مجدلاوي ،عمان الأردن، ط1، 2013.

10) شوقي عبد الحميد يحي، دور الرواية العربية في الربيع العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 1، 2014.

11) صلاح فضل، لذة التجريب الروائي، مكتبة السباعي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2005.

12) عبد الإله بلقزيز، ما بعد الربيع العربي، أسئلة المستقبل، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 2017.

13) فهمي ماهر حسن السيرة تاريخ وفن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط1، 1970 .

14) فيحي برشاد، الربيع العربي الشتاء الليبي، ت منذر محمود محمد، السفير عبدالفتاح عموره، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 2014 .

15) فيصل دراج، الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن السقوط ،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت ،لبنان،ط1، 2008.

16) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية عربي إنجيزي فرنسي،مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1 2002.

17) مانكور أولسن، السلطة والرخاء تجاوز الدكتاتوريات الشيوعية والرأسمالية، ترجمة: وتقديم: ربيع وهبة، المركز القومي للترجمة ،ط1، 2011.

18) محمد صابر عبيد، التشكيل السير ذاتي، التجربة والكتابة ، دار نينوى ، دمشق، سوريا، دط 2012.

19) محمد عكاشة، لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظريات الاتصال، دار الجامعات للنشر، القاهرة مصر، ط1،2005.

20) ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1،1987.

21) ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية ، الكلمة في الرواية ،تر يوسف حلاق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق.

22) ياسمينة خضرة، ليلة الريس الأخيرة، ترجمة أنطوان سركيس، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، ط2 . 2016،2017.